وحدة الأخلاق والسعادة

معظم الفلاسفة كما سبق وأشرنا جعلوا من الأخلاق المرتكز الأساسي لتحقيق السعادة، واعتبروا السعادة ناتج مراعاة الفضيلة، ووصفوا الأخلاق على أنها الخير الأسمى، والخير الأسمى حسب ما جاء على لسان كانط هو وحدة الفضيلة والسعادة، وكذلك حسب فلسفة أفلاطون. ولا شك بأن الأخلاق الخيرة تمنح صاحبها سعادة وارتياح، فالسعادة هي حال الإنسان الصالح العادل – كما سبق وقلنا– الذي يعيش دون توبيخ ضمير والمكتفي بما لديه فالقناعة نوع من الامتلاء والغنى النفسي.

سقراط انحصرت فلسفته في مجملها في موضوع الأخلاق، باعتبارها أهم الطرق المؤدية إلى السعادة، فالسعادة بالنسبة له أيضاً هي حال الإنسان الصالح العادل، حتى لو تعرض للظلم؛ قد يُتهم أحدهم كذباً فتنزل به المصائب، وينتصر الظالم، ولكن المظلوم رغم ذلك يبقى سعيداً بصلاحه وعدالته، بينما يشقى الظالم بغروره وجهله؛ ولا شيء يسبب التعاسة أكثر من تأنيب الضمير.

سقراط أكد على ضرورة المعرفة أيضاً فاستيعاب المبادئ الخُلقية للاقتناع بها يؤدي إلى مزاولتها، والعلم بالشر يفضي إلى تجنبه.

ولكن ما القيم الأخلاقية التي تحدث عنها الفلاسفة؟ القيم الأخلاقية صنفان: "صنف يُلتمس لذاته ويُطلب كغاية، ويكون مُطلقاً لا يحده زمان ولا مكان، وصنف نسبي ينشده الناس كوسيلة لتحقيق غاية ما، ولهذا تختلف القيم باختلاف حاجات الناس ومطالبهم"[9]

[9]- أسس الفلسفة ص 378.

هناك اتفاق أو اصطلاح بين الناس، في كل زمان ومكان على بعض الخصائص التي نسميها فضائل ورذائل، وهذا الاصطلاح تم التوافق عليه على ضوء التجارب والظروف التي تسود حياتهم. فالأخلاق تُعنى بالخير، وتستخدم كوسيلة لتحقيق غاية سامية، ورغبة في مستوى حياة هادئة راقية؛ وهذه المبادئ الأخلاقية العامة ليست وهماً أو ضلالاً، وليست مجرد نظريات عابرة تتغير بتغير الظروف أو الأمكنة، بل هي قيم ثابتة تتجاوز حدود الزمان والمكان. ورغم اختلاف الأزمنة والأمكنة، فالطبيعة البشرية ومتطلباتها لا تتغير مع تغير الظروف. في أي مجتمع كان إذا ابتعد الناس عن المُثل الأخلاقية ستكون الفوضى التي تحط من مستوى الإنسان العاقل إلى مستوى أدنى حياة بهيمية بربرية، لا حسيب فيها ولا رقيب، ولا تأنيب لضمير. ولا يمكن للسعادة أن تتحقق وسط التعديات والجريمة والخوف. ولهذا كانت معظم القوانين والشرائع لخدمة الإنسان وتحقيق تطلعاته لحياة هادئة آمنة وسعيدة. الأخلاق هي المُثل العليا التي تحدد استقامة الأفعال الإنسانية؛ فالأفعال المنبثقة عن هذه المُثل السامية هي الأساس الذي يبنى عليه نتائج صالحة تحقق الأمان والراحة والاستقرار.

ولكن ماذا يحصل لو اقتصر وجود القيم الإيجابية على أفراد عددهم قليل في المجتمع؟ وكيف تكون النتائج؟

وما مدى أهمية وضرورة كل تصرف أخلاقي؟. بدون المُثل الأخلاقية لا يمكن للناس أن تلتزم بمواقف إيجابية تحصنها وتمنع عنها الغواية، والاستسلام للضلال. فإذا كانت القيم غائبة عن حياة الجماعة فهذا يعني الجهل والفوضى والجريمة وغيرها، المعرفة الواضحة تسعد الإنسان بينما الغموض يدفعه إلى الحيرة والشك والتوتر والمخاطر. نشر المعرفة ضرورية، حتى في أبسط أمور الحياة، بما فيها ساعات النوم والطعام والنظافة وغيرها، والتمييز بين الأفعال الخيرة والأفعال الشريرة ضرورة أيضاً لضمان سلامة الأفراد وتحقيق سعادتهم.

أهم القيم الضامنة لتحقيق سعادة الأفراد هي:

أول الأخلاق أو القيم الضامنة لتحقيق السعادة هو **الصدق**.

الصدق هو الخطوة الأولى نحو أسس الأخلاق الفاضلة. الصدق مع النفس ومع الغير، فالصادق محترم ومحبوب، وموضع ثقة، وهذا يُسعد الإنسان الصادق شخصياً لأنه لا يخاف من مغبة كشف خباياه إذا كانت ملتبسة، ويُريح من يتعامل معه أيضاً وهذا يسهل له أموره ويقربه من قلوب الناس. بينما الكاذب لا يطال غير العزلة وسوء التقدير، وهذا يجلب الشقاء له ولغيره. والذي يتكلم بالكذب ليس إلا عاجزاً مخادعاً ومغروراً.

يقول جان بول سارتر: " الكاذب عالم كل العلم بالحقيقة التي يموَهها. فالمرء لا يكذب فيما يجهل، وهو لا يكذب عندما يذيع خطأ يكون هو ذاته قد خُدع به، أنه لا يكذب عندما يكون مخدوعاً، وعلى هذا فإن المثل الأعلى للكاذب هو وجدان وقح يؤكد الحقيقة بذاتها وينفيها في كلامه وينكر هذا النفي لذاته... الوجدان الكاذب يؤكد أنه موجود بطبعه على أنه وجود خفي عن الآخر... إن الكذب يتضمن قدرتي أن أفلت من الآخر إفلاتاً تاماً، لأن وجود الآخر ليس في آخر المطاف بالنسبة إليَ سوى وجود نفعي ووظيفي".[10]

هناك وجوه متعددة للكذب، منها التمويه والزيف في العلاقات الاجتماعية وهذا النفاق طالما وقع ضحيته كثيرون من أصحاب النوايا السليمة وتسبب بأذيتهم. وجود النفاق والخبث والوشاية الكاذبة مسائل تعرض الناس لأبشع المواقف. ولا عجب أن يقع أشخاص يتصفون بصفات أخلاقية جيدة ضحية وشاية كاذبة من مفتري فاشل. "وبازدياد قوة وتنوع وسائل الإعلام العصرية اتسعت الهوة بين القول والفعل، وصارت مخاطر ذلك على الناس هائلة، وأصبحت في أيدي من يملكونها

[10]- المواقف الأخلاقية ص 25.

وسيلة بشعة من وسائل التضليل والخداع والإبهام والتخدير. ولهذا ينصح برجسون فيقول: لا تصغوا إلى ما يقوله الناس، بل انظروا ماذا يفعلون".[11]

شوبنهور يقول: "ذوو النفوس الدنيئة يجدون اللذة في التفتيش عن أخطاء العظماء". ولهذا من الأفضل للعاقل أن لا يُشغل نفسه بما يواجه من تهكم وسخرية، فالتهكم هو ضرب من الخبث، لأن السخرية التي يعتمدها المتهكم غالباً ما تنقلب ضده، فالسخرية لا تطال إلا الناطق بها.

وكما قال (رسل) عن الفاشلين الذين يصرفون طاقاتهم في نشاطات غير موضوعية وفي التهكم والتحقير والحسد: "فهم لا يستطيعون بناء دارهم الخاصة أو ترتيب بستانهم الخاص أو توجيه عملهم لإنتاج ما يدفعهم إليه اختيارهم الحر، وهكذا تُلجم غريزة الإبداع المفترض فيها أن تقود إلى حياة العقل وتُرمى جانباً، ولكنها غالباً ما تجد في حب الدمار المنفذ الوحيد الذي يبقى مفتوحاً أمام النشاط الفعال. فمن هزيمتها يولد الحسد ومن الحسد ينمو الميل إلى قتل الروح الإبداعية في الناس الأكثر سعادة. هذا هو أحد أكبر مصادر الفساد في حياة الغريزة".[12]

حين تكون الأخلاق حميدة لدى المرء، لن يهتم بما يُقال عنه، وسيتعالى عن الصغائر ولن تحبطه السخرية، ما دام قادراً على تحقيق أهدافه المنسجمة مع ميوله السامية.

ومن الصفات الحميدة أيضاً **الإقدام والشجاعة.**

الشجاعة هي نوع من الإثارة المفرحة، وهي أيضاً رفض كل ما هو مبتذل. وهي عكس الوهن وهو فقدان الحس بالواقع، والشجاعة الإيجابية يلزمها إرادة حرة وتبصر بالعواقب، هنا يجب التمييز بين التهور والشجاعة، فالتهور قد ينتج عنه أعمال شريرة لا تعبر عن أي معنى أخلاقي، بينما الإقدام هو فضيلة أخلاقية،

---

[11]- الأخلاق النظرية ص 198.

[12]- أسس لإعادة البناء الاجتماعي ص 172.

تعتمد على ثقافة الواجب، فالواجب الاجتماعي يعطينا حافزا لعمل الخير وهذا الحافز يمدنا بالقوة والاندفاع. والشخص الذي تنقصه الشجاعة يبقى متذبذباً، بينما الشجاع يعمل على تأكيد ذاته وتحقيق رغباته. وحين لا يستطيع الإنسان تحقيق رغباته بسبب نقص الشجاعة أو التذبذب يُصاب بالإحباط، فتنتاب المحبط نوبات من اليأس والسخط على المجتمع، الوسط الذي يرتبط به المحبط أشد الارتباط، وهذا الأمر قد يولد العدوانية أو اضطرابات نفسية تجر إلى الشقاء، بينما الشجاع يزداد عنده النشاط والتفاعل والتوافق مع المحيط.

ومن القواعد السيئة التي تحكم الناس وتسبب لهم عدم التوافق الاجتماعي بعض العادات الخاطئة.

وهذه المظاهر تجري بأمثلة مختلفة منها حب التباهي أو التفاخر، ويبذل الناس جهوداً كبيرة للتوافق معها. هناك عادات وتطلعات بشرية تتحول أحياناً إلى نوع من الغطرسة والانغلاق؛ مثلاً رسل يتحدث عن نموذج لظاهرة موجودة بقوة في مجتمعاتنا وهي التعليم : "يتمنى أصحاب الحرف أن يرسلوا أولادهم إلى مدرسة خاصة على الرغم من أن التعليم الذي سيتلقونه هناك لا يُفضل على تعليم مدرسة حكومية، كما أن الرفاق الذين سيتعرفون عليهم في هذه المدارس هم أكثر أذية ولكن الكبرياء قد حكمت بأن المدارس الخاصة هي أفضل، وليس من هذا الحكم إفلات، ما يجعلها أفضل كونها أغلى. ويبذل الناس في تحقيق هذه الغاية جهوداً كبيرة".[13] وهذا واقع لا يمكن نفيه فهو موجود. قد يُحرم الأطفال من معظم الكماليات، وأحياناً الأساسيات التي تساهم في تحقيق سعادة طفولتهم، فقط من أجل المظاهر. والأكثر من ذلك، باتت التربية في المنزل والمدرسة تقتصر على النظر إلى النجاح في الدراسة، وتحصيل العلامات الجيدة، للوصول إلى اختصاصات يعتبرها العرف مميزة وذات مكانة مرموقة كالطب والهندسة وغيرها،

[13]- أسس لإعادة البناء الاجتماعي ص 96.

رغم أن الأطفال قد تكون لديهم ميول مختلفة تماماً، وهذه الاختصاصات المفروضة عليهم قد تسبب لهم الهم والقلق والضغط في المستقبل؛ ولكن الأهل يصرون عليها، وكأن بعض الاختصاصات الأخرى غير ضرورية لحياة الناس، ويمكن التخلي عنها وتجاهلها. وهذا احتقار واضح لمعظم المهن والحرف الإبداعية؛ وهنا تفقد التربية مهمتها الأساسية، وهي تنمية الإبداع والتميز، فالحيوية الفكرية أو الذكاء بالنسبة للبعض مرتهنة ببعض المسائل في الرياضيات والفيزياء واللغات، دون غيرها من علوم التربية الاجتماعية ومهارات التواصل وعلوم الأخلاق. وكم مرة نُصاب بالدهشة حين نقابل بعض من وصلوا إلى أعلى مراتب العلوم ونجدهم عاجزين عن تدبر أبسط أمور معيشتهم بسبب جهلهم بالأمور العملية الضرورية لحياتهم وحياة أسرهم. وكم من أم متعلمة تشغل أعلى الوظائف الإدارية ولكنها تفشل في إدارة أمورها اليومية، وتعتمد على خادمتها في تنظيم أمور المنزل والأطفال.

وهناك ظاهرة أكثر خطورة من ظاهرة التعليم وهي ظاهرة الزواج، إن كثيراً من الناس لا يسألون عن سمات الزوج وطباعه أو عن طباع الزوجة بل يسألون عن المركز الاجتماعي والمستوى الاقتصادي، ويتسابقون إلى إقامة حفلات الأعراس على سبيل التباهي بين الناس، وسرعان ما ينهار هذا الزواج بعد إزاحة الستار عن كل هذه القشور المادية. فالمزايدة أصبحت سمة واضحة في سلوك الجماعة. قد يرضى الفرد بأشياء لا تتوافق مع ميوله فقط من أجل المظاهر، وهذه قمة الإحباط والتعاسة. ولهذا نجد في المجتمع مجموعات غير متجانسة فكرياً ومن عدم التجانس تنشأ الصراعات.

هذه بعض النماذج المحدودة والقليلة من بين عشرات النماذج التي تُعبر عن مظاهر اجتماعية فارغة، لا تؤدي بالناس إلا إلى التوتر والضياع واعتماد طرق مختلفة لتحصيل المال حتى لو كانت طرق جمعه لا تؤدي إلا إلى القلق والإرهاق، بدل الفرح والخير والرضا. الحياة المدنية الحديثة وما فيها من

مستجدات ساهمت بشكل مباشر في تغيير عادات وسلوك كل الأفراد – وخاصة مشاهد العنف والحروب – وأصبح الإنسان لا يحتمل أحياناً كلمة، وسرعان ما يضجر ويتوتر ويُحبط. ولا يمكن تحقيق أي سعادة دون العودة إلى حياة بسيطة بعيدة عن المظاهر والترف والعودة إلى فضيلة القناعة.

السير خلف المظاهر هو نوع من الغرور والجهل وثقافة فارغة، أحياناً يكون لدى بعض الناس الكثير من الصفات المحمودة كالذكاء والقوة والجمال ولكن حين يصيبهم الغرور يدفع بهم نحو التكبر والافتخار وطلب الرياسة على من حولهم وهذا الاستكبار والتعالي ضرر للمتكبر ولمن حوله.

" إذا كان فرع الشجرة محملاً بالثمار، فإن تلك الثمار ستحنيه، أما الفرع الذي لا ثمر عليه فيظل رأسه مرفوعاً، الرجل العارف العالم هو رجل محمل بثمار المعرفة، وهو رجل ينحني بفعل الثمار التي يحملها، فالتواضع دليل المعرفة والكبر دليل الجهل، وكلما ازداد المرء علماً وإدراكاً لحقيقته ومكانه في الكون وبين الناس، كلما ازداد تواضعاً، وكلما ازداد جهلاً وإدراكاً مريضاً لحقيقته ومكانه في الكون وبين الناس كلما ازداد تكبراً وتعالياً. الشعور بالكمال هو عين النقص".[14]

الغرور دليل نقص يحاول المغرور تعويضه، والغرور عكس النبل الذي يُعتبر من أهم الفضائل الأخلاقية، وكلما ازداد الغرور عند الإنسان كلما أصبح تافهاً مقيتاً غير محبوب من الآخرين. بينما التواضع فضيلة؛ ولكن شرط أن لا يصل إلى حد الخضوع، المهم أن لا يتحول التواضع إلى وضاعة. وأن لا تتحول عزة النفس إلى عجرفة وغرور.

عن التواضع يقول رينيه ديكارت: "وهكذا فإن أنبل الناس اعتادوا أن يكونوا أكثرهم تواضعا... والمتعجرفين يحاولون أن يحطوا من شان كل بقية البشر... أما بخصوص الحقارة، أو التواضع الشائن فهي على نقيض مباشر للنبل، وغالباً ما يحصل بأن الذين يملكون أحقر النفوس هم أكثر الناس تغطرساً وتعالياً. كما أن

[14]- جلال الدين الرومي ص 222.

أكثر الناس نبلاً هم أكثر الناس تواضعاً. ولكن في حين نرى أن أولئك الذين لهم نفس قوية ونبيلة لا يغيرون البتة من مزاجهم أمام ما يحصل لهم من نجاحات وازدهار أو معاكسات وفشل".[15]

هذه نماذج عن بعض الفضائل الأخلاقية التي تمنحنا القوة والحصانة؛ "والفضيلة هي أعظم علاج ضد الانفعالات... وبالتالي فإن لها علينا سلطة أقوى من سلطة الانفعالات التي تختلف عنها ونصادفها معها، فقد كان من المؤكد حين يكون لدى نفسنا دوماً ما يكفيها ويرضيها في أعمق أعماقها بأن جميع الاضطرابات التي تأتيها من الخارج لا تملك أية قدرة على الضرر بها، بل أن هذه الاضطرابات تنفع في زيادة فرحها، فذلك أنه حين ترى أن هذه الاضطرابات لا تستطيع أن تسيء إليها فإن الأمر يجعلها تعرف مدى كمالها. ومن أجل أن تمتلك نفسنا ما يرضيها ويكفيها فهي لا تحتاج إلا إلى اتباع الفضيلة بالضبط... ذلك أن من يتبع الفضيلة فإنه يتلقى بالمقابل رضا على درجة من القوة تجعله سعيداً وتجعل أعنف جهود الانفعالات لا تملك ما يكفي من مقدرة لإزعاج هدوء نفسه"[16].

[15]- انفعالات النفس ص 99.

[16]- نفس المرجع انفعالات النفس ص 90 .